الطريقة الرحمانية وأثرها في الوحدة المغاربية
(القسم الأول)

أ/عبد المنعم القاسمي الحسني*

إن موضوع الطرق الصوفية من الموضوعات التي تشغل بال الكثير من الناس، والعديد من الباحثين والأساتذة والدارسين داخل الجزائر وخارجها، والحق أن للطرق الصوفية أهمية بالغة في الإسلام، وذلك أنها تمثل الجانب العملي من التصوف، وهو جانب ارتبط بحياة المجتمعات الإسلامية وجماهير الناس، ويسجل التاريخ لكثير من الطرق الصوفية مواقف لا تنقصها الشجاعة إزاء مواجهة العدو أو الظالم، ورد الظلم والدفاع عن مصالح الطبقات الفقيرة المستضعفة، وذلك في عزة مدهشة قل أن توجد في هذا العصر، ولا يخفى علينا دور الطريقة القادرية في مقاومة الاستعمال الفرنسي بالجزائر ومعها بقية الطرق الأخرى، ودور السنوسية في ليبيا غير خاف على أحد، ونجد الدور نفسه قامت به الطريقة الشاذلية في مصر تجاه المحتل، وحفاظا على مصالح العباد، في عصر الشاذلي نفسه.

---

*. أستاذ بجامعة قاصدي مرباح– ورقلة.

وموضوع مداخلتي أو كلمتي هو الطريقة الرحمانية وأثرها في الوحدة المغاربية، وهي تمثل أحد المعالم الرئيسية البارزة في مجتمعنا المعاصر، وظاهرة دينية روحية اجتماعية وسياسية هامة في تاريخ الجزائر المعاصرة،

فمن أي زاوية تناولناها وجدنا الكثير من الفوائد والفرائد التي تساعدنا على فهم الكثير من الحقائق في الناحية الدينية، الناحية السياسية، الناحية الاجتماعية.... تناولت فيها محاور أربع هي :

1. مفهوم الوحدة الإسلامية وأهميتها في العالم الإسلامي.
2. الطريقة الرحمانية.
3. الطرق الإسلامية في الجزائر.
4. انتشارها في المغرب الإسلامي.

أولا : مفهوم الوحدة الإسلامية

قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[1]. ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]. ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[4]. ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ

1. سورة آل عمران، الآية 103.
2. سورة آل عمران، الآية 105.
3. سورة الحجرات، الآية 10.
4. سورة الشورى، الآية 10.

إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[1]. ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[2]. ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3]. ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[4]. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[5]. ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[6].

وقال ﷺ : **"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"**[7]. وقال أيضا : **"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"**[8]. وقال : **"المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا"**[9]. إن قضية الوحدة الإسلامية هي من القضايا الكبرى التي شغلت الضمير والفكر الإسلامي في القرون السالفة وطيلة القرن العشرين وإلى الآن، وأصبحت تشكل هاجس المسلمين في مختلف أصقاع الأرض، وقضية حياة أو موت بالنسبة لهم. بل إن تراجع العالم الإسلامي عن القيام بدوره المنوط به هو نتيجة غياب الوحدة الإسلامية، يقول العلامة محمد حسين فضل الله : "إن

1. سورة النساء، الآية 59.
2. سورة المؤمنون، الآية 53.
3. سورة المائدة، الآية 2.
4. سورة الأنفال، الآية 46.
5. سورة آل عمران، الآية 110.
6. سورة الأنبياء، الآية 92.
7. أخرجه البخاري.
8. أخرجه مسلم
9. أخرجه مسلم.

غياب الوحدة الإسلامية الكاملة، وانفراط عقدها منذ قرون من الزمن، كان وراء انهيار العالم الإسلامي، وسقوطه في بحر التخلف والتمزق والضياع، وبحيث أصبح اليوم، يسير في اتجاه الحاضر المظلم، والمستقبل المجهول، والمصير المشؤوم، دون أن يجد من يعمل -بصدق وإخلاص- على إنقاذه وإخراجه إلى بر الأمان".

والمقصود من الوحدة الإسلامية هو توحيد مواقفنا السياسية والعملية أمام التحديات الخارجية والداخلية الراهنة، هناك عشرات التحديات التي تشكل خطورة أمام الأمة الإسلامية كوجود إسرائيل، والنفوذ الأجنبي الجديد، والهيمنة الاقتصادية والإعلامية واكتساح وسائل المعرفة والاتصالات، كل ذلك بحاجة إلى توحيد الصف الإسلامي شعوبًا وحكومات ومؤسسات من أجل إنقاذ ما يجب إنقاذه. إذا لم نفعل شيئا حيالها أدى بنا ذلك إلى حافة السقوط والانهيار. وأصبح من الواجب علينا اليوم النظر إلى الموضوع نظرة جدية وأن نوحد جهودنا ونرص صفوفنا ونعمل على إقامة هذه الوحدة، وأن لا ندع مجالا للفرقة والتنازع بيننا، وأن لا نترك فسحة للنعرات الطائفية والمذاهب الدينية المختلفة لتسيطر على عقولنا وأفكارنا، إذ أن ذلك مخالف لأحكام القرآن الكريم ولطبيعة الحياة الإنسانية الكريمة، فما الذي يجمع شعوبا تتحدث اللغة الفرنسة ويوحد بينها، غير اللغة فقط ؟ وما الذي وحد شعوب أوربا غير العامل الجغرافي وعوامل التوحيد بين المسلمين لا تعد ولا تحصى. ثم إن الظرف الذي تمر به الأمة الإسلامية لا يسمح بذلك.

نحن لسنا ضد التنوع والاختلاف في الفكر إنما المذموم هو التعصب للفكرة والرأي والمذهب، هو التطرف وعدم الاعتراف بوجود الآخر، وحقه في عرض رأيه وفكره، وغياب ثقافة الحوار بيننا. علينا أن نبذل الجهود في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من الأفكار المسبقة والآراء الخاطئة التي تكونت عبر الحقب والعصور، ومن قيوده التي فرضت عليه على مدى القرون الماضية. علينا كأساتذة وباحثين أن نعمل على تجاوز الخلافات وتقريب وجهات النظر، والبحث في جذور المسألة ودفع الباحثين إلى النظر في أسباب الاختلاف ومعالجتها.

نهدف من وراء ذلك إلى بناء أمة إسلامية قادرة على اللحاق بالركب الحضاري واستدراك ما فاتها من مستويات التقدم العلمي والحضاري والتكنولوجي فلا زلنا إلى الآن في أسفل قائمة الدول السائرة في طريق النمو بالرغم من الإمكانيات الكبيرة التي تمتلكها شعوب الأمة الإسلامية. فالوحدة الإسلامية هي الطريق الصحيح إلى بناء الأمة ونهضتها الشاملة، وإعادة أمجادها الماضية، ونشر نور الإسلام على مختلف بقاع العالم الحديث. والناظر المتفحص في أحوال المغرب العربي وعوامل الوحدة بين أقطاره يجد أنها كثيرة ومتعددة، ولعل من أبرزها :

- العقيدة : فقد اعتنق المغرب الإسلامي الديانة الإسلامية.

- اللغة : فلا نجد هناك لغات كثيرة ومتعددة، بل الجاري استعماله هو لغتان فقط : البربرية والعربية.

- العرق : الانصهار بني الجنسين العربي والبربري.

- مذهب مالك : زحف مذهب "مالك بن أنس" بدءًا من التأثير الذي أحدثته "مدرسة القيروان" التونسية، ومرورًا بالقسم الغربي في العالم الإسلامي كله، وهو القسم الذي انتظم فيه الأندلس وبلدان المغرب العربي، وعبورًا إلى القارة الإفريقية حيث لا يزال مذهب مالك هو المذهب الغالب في هذه البلاد.

- الطرق الصوفية : وقد انتشرت بشكل كبير قبل الوجود العثماني وساهمت في توحيد المجتمع المغاربي، وهو ما سنتعرض له في المحور التالي بحول الله.

ثانيا : الطرقية في الجزائر

الطرق الصوفية : يقول الداعية الكبير الشيخ المجاهد بديع الزمان سعيد النورسي (ت. 1379 / 1960م) في مكتوبات له حول التصوف تحت عنوان ((التلويحات)) : "وقد كانت الطرق الصوفية وما زالت كذلك إحدى القلاع الثلاث التي تتحطم على جدرانها الصامدة هجمات النصارى بسياساتهم ومكائد الذين يسعون لإطفاء نور الإسلام، فيجب ألا ننسى فضل هذه الطرق في المحافظة على مركز الخلافة الإسلامية اسطنبول طوال خمسمائة وخمسين سنة رغم هجومات عالم الكفر وصليبية أوربا، فالقوة الإيمانية والمحبة الروحانية والأشواق المتفجرة من

المعرفة الإلهية لأولئك الذين يرددون ((الله الله)) في الزوايا والتكايا المتممة لرسالة الجوامع والمساجد والرافدة لهما بجداول الإيمان، حيث كانت تنبعث أنوار التوحيد في خمسمائة مكان، لتشكل بمجموعها أعظم نقطة ارتكاز للمؤمنين في ذلك المركز الإسلامي".

والطرق جمع طريقة وتعني في اللغة السبيل، وطريقة الرجل مذهبه كما جاء في لسان العرب.[1] أما في الاصطلاح : فالطريقة عند الصوفية هي السيرة المختصة بالصوفية السالكين إلى الله تعالى، فهي سفر إلى الله تعالى[2]، و"السالك إلى الله تعالى أو المريد هو المسافر فعلى المسافر إلى الله أن يسلك طريق القوم وأن يجتازها مرحلة بعد مرحلة، أما من أدركته عناية الله فجذبته العناية إلى الله جذبا فهذا ما يسمونه مجذوبا"[3]. يقول صاحب كتاب ((ظهور الحقائق في بيان الطرائق)) : "والطريقة عند أهل الحقيقة عبارة عن مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية التي لا رخصة فيها، وهي المختصة بالسالكين إلى الله تعالى، مع قطع المنازل والترقي والمقامات"[4].

إذا انتقلنا إلى الإمام الغزالي نجده يقول : "إن طريق الصوفية عبارة عن تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه

---

1. ابن منظور : لسان العرب، طبعة صادرة، بيروت، لبنان، 1968، مادة طرق، ج. 10، ص. 221.
2. القاشاني : اصطلاحات الصوفية، الباب التاسع، ص. 65.
3. علي سالم عمار : أبو الحسن الشاذلي، ج. 2/ ص. 24.
4. عبد الله بن علوي العطاس : ظهور الحقائق في بيان الطرائق، ص. 18.

الهمة على الله تعالى، ومهما حصل كان الله هو المتولي لقلب عبده المتكفل بتنويره بأنوار العلم، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانب السالك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار"[1].

وجاء في ((دائرة المعارف الإسلامية)) : "إن هذا اللفظ العربي الذي يعني السبيل، قد أخذ معنيين اصطلاحيين متعاقبين في التصوف الإسلامي : فهو في القرنين 9 و10 الميلادي (3 و4 الهجريين) هو عبارة عن منهج النفس الأخلاقي يدبر عمليا السلوك الفردي، وهو بعد القرن 11 الميلادي (الخامس الهجري) قد أصبح عبارة عن جملة مراسم التدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة الإخوانية الإسلامية التي بدأت تنشأ منذ ذلك الحين. وانتهت الطريقة إلى أن أصبحت تدل على المعاشرة القائمة على الرعاية الإسلامية العادية، وعلى سلسلة من الوصايا الخاصة لكي يصبح الإنسان مريدا، ويتلقى المريد البيعة أو التلقين، أو الشد أمام طائفة من الشهود ذوي المراتب من شيخ السجادة والمرشد والمقدم والنقيب والخليفة"[2].

وغاية الطريق هي : "الترقي الخلقي بالمجاهدة للنفس، وإحلال الأخلاق المحمودة محل الأخلاق المذمومة"[3]. من هنا نستخلص أن "الطريقة أسلوب عملي يطلق عليها أيضا المذهب وهي الرعاية

---

1. الغزالي : إحياء علوم الدين، طبعة القاهرة 1934، ج. 1، ص 16-17.
2. دائرة المعارف الإسلامية : مادة طرق صوفية، مقال الماسينيون.
3. أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص. 204.

والسلوك لإرشاد المريد عن طريق اقتفاء أثر طريقة تفكير وشعور وعمل تؤدي من خلال تعاقب مراحل المقامات في ارتباط كامل مع التجارب السيكولوجية المسماة (أحول)".

وبهذا أصبح مصطلح الطريقة يعني : "مراسم تعبدية تمارسها مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين"[1]. وأصبحت لفظة طريقة عند الصوفية المتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية ينسبون إلى شيخ معين ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي ويحيون حياة اجتماعية في الزوايا والربط، ويجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معنية ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام[2].

لمحة عن نشأة الطرق الصوفية

من منتصف القرن الثالث الهجري، بدأ الصوفية ينظمون أنفسهم طوائف وطرقا يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذي يحقق لهم كمال العلم وكمال العمل، كما نجد ذلك في بغداد في العصر العباسي الأول عند فرقة "السقطية" نسبة إلى السري السقطي و"الطيفورية" نسبة إلى أبي زيد طيفور، والخرازية نسبة إلى أبي سعيد الخراز والمحاسبة نسبة إلى الحارث المحاسبي... وقد ورد ذكر هذه

1. د. عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط. 1، 1983، ص. 93.
2. د. أبو الوفا التفتازاني : مرجع سابق، ص. 286.

الفرق في ((كشف المحجوب)) للهجويري[1]. وقد كانت تمثل البدايات الأولى واللبنات الأساسية التي قامت عليها الطرق فيما بعد، لأنها لم تعرف ذلك النظام والترتيبات التي وجدت فيما بعد. ومع تطور التصوف العلمي وانتشار الظاهرة الصوفية لدى الأوساط الشعبية، حيث كثر عدد الأتباع والمريدين، والتف المريدون حول الشيخ ونسجوا حوله هالة من التقديس والتبجيل، بدأت تظهر الطرق الصوفية بشكلها المتعارف عليه الآن. وأول ما عرف العالم الإسلامي من الطرق : الطريقة القادرية، والمدينية والرفاعية والشاذلية والخلوتية..... وجاء في خطط علي باشا مبارك ما يلي : "إن معظم الطرق منسوب إلى الأقطاب الأربعة : سيدي عبد القادر الجيلاني، سيدي أحمد الرفاعي، سيدي أحمد البدوي، سيدي إبراهيم الدسوقي... وهناك طرق أخرى غير منسوبة للأقطاب كالسعدية والنقشبندية والشاذلية والخلوتية"[2].

ولن نستطيع بأي حال من الأحوال أن نفهم لماذا هذه الطريقة أوتلك، التي يتبعها الإخوان والمريدون، فلن نجد الحقيقة في الطريقة نفسها، بل يرجع ذلك ربما إلى شخصية الشيخ نفسه، ذلك لأننا لا نجد اختلافا كبيرا تميز الطرق بعضها عن بعض، أو فوارق هامة واضحة المعالم، لا شيء من هذا على الإطلاق، بل على العكس يرى الصوفية أن الطرق كلها واحدة، وأنها كلها تؤدي إلى نفس الغاية، إنما الاختلاف قائم في أشخاص

1. الهجويري : كشف المحجوب، ترجمة سعاد قنديل، ج. 2، ص. 403.
2. علي باشا مبارك : الخطط الجديدة، ص. 436، 437.

شيوخها، وهذا ما ذهب إليه معظم الباحثين[1]. ولعل الاختلاف الوحيد يكمن في الأوراد والأحزاب التي يرددها الأتباع، يقول أحد الباحثين: "إنها بذلك أشبه بمدارس تتحد غايتها في التعليم وتختلف وسائلها باختلاف المعلم الذي يجتهد في أن يضع لتلاميذه قواعد ورسوما خاصة يرى أنها أفضل في تعليمهم مع بقاء الغاية القصوى من الطريق الصوفي"[2]. ولقد كانت هذه الطرق في نشأتها الأولى في القرنين الثالث والربع تدل على أحوال الصوفية وسلوكهم ثم أصبحت تدل فيما بعد على نظام من الرياضيات والمجاهدات الصوفية تمتاز به كل طريقة[3]. ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الصوفية وقد عنوا بالكلام في دقائق أحوال النفس والسلوك وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم فصار التصوف على أيديهم علمًا للأخلاق الدينية يتميز عن علم الفقه في الموضوع والمنهج، وقد اتفقت هذه الطرق بمجموعها في كل من موضوع هذا العلم والغاية منه، ولكن وقع الخلاف بينها في المنهج العلمي، فهي أشبه بمدارس تتحد غاياتها في التعليم الروحي وتختلف وسائلها وأساليبها المحلية في باختلاف المعلم الذي يجتهد في أن يضع لتلاميذه قواعد ومناهج وأساليب خاصة يرى أنها أفعل في تعليمهم[4].

1. الدكتور توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العهد العثماني ص. 84.
2. الدكتور أبو الوفا التفتاواني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص. 286.
3. د. مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام، ص. 112.
4. د. مصطفى حلمي: الطرق الصوفية في مصر، ص. 95.

والحق أن في اختلاف المسالك راحة للسالك كما يقول زروق في كتابه ((قواعد التصوف)) : "إن في هذا الاختلاف إعانة له – أي للمريد – على ما أراد من بلوغ الأرب"[1]، فلذلك اختلفت طرق القوم ووجوه سلوكهم، فمن ناسك يؤثر الفضائل بكل حال، ومن عابد يتمسك يتعلق بالقوم في كل مناط، ومن مريد يقوم بمعاملة البساط، والكل في دائرة الحق بإقامة حق الشريعة والفرار من كل ذميمة وشنيعة. وقد يكون في تعدد الطرق وتنوعها واختلافها فائدة للمريد حيث يكون أمامه فرصة عريضة لاختيار الطريقة التي توافقه وتوائم طبعه، وحين الاختيار يتم الالتزام بنهج الطريقة التي اختارها.

والحقيقة أن الغاية القصوى التي تهدف إليها الطرق الصوفية بأنواعها هي تربية تلاميذها "مريديها" تربية روحية إسلامية صافية بحيث تحقق انقلاب الفرد من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية.

الطرق في المغرب الأوسط : أما بالنسبة للمغرب الأوسط -الجزائر- فيرى معظم الباحثين أنه : لا يمكننا الآن معرفة البداية الحقيقية للتصوف بالمغرب الإسلامي، إذ تنقصنا الأدلة والبراهين على ذلك. ويميلون إلى التصوف في صورته الأولى الزهدية، قد يكون موجودا منذ الفتوحات الإسلامية. أما بالمفهوم الدقيق للتصوف والذي اصطلح عليه فيما بعد، فقد ظهر أولا بالمشرق ثم انتقل مع المعابر الأربعة التي انتقلت بواسطتها الأفكار إلى بلاد المغرب العربي، وهي : الحج، طلب العلم، الكتب والمؤلفات، التجارة.

1. أحمد زروق : قواعد التصوف، صححه : محمد زهري النجار، راجعه علي معبد فرغلي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط. 2، 1396 هـ، ص. 34.

كان من أوائل الذين نشروا التصوف بالجزائر : الشيخ عبد السلام التونسي، أبو مدين الغوث... ومن أقطابه أيضا نذكر على سبيل المثال : عبد الرحمن الثعالبي، أحمد بن عبد الله الزواوي، إبراهيم التازي، الإمام السنوسي، ابن زكري، أحمد زروق البرنسي أحمد بن يوسف الملياني... وغيرهم. وسنذكر هنا بعض أسباب انتشار التصوف بالجزائر، ونستطيع تقسيمها إلى أسباب فكرية، سياسية، اجتماعية...

1. أسباب فكرية

أ. وجود أعلام صوفية عملوا على نشر هذه الطريقة بكامل المغرب الإسلامي، بحكم تكوينهم النفسي والعلمي، أبي يعزى، أبو مدين، عبد الحق الاشبيلي، ابن مسرة... أثروا بسلوكهم وبعلمهم وبمؤلفاتهم.

ب. تأثر كثير من العلماء بالتصوف المشرقي : وقد ظل متصوفة المغرب الإسلامي على اتصال دائم ووثيق بمتصوفة المشرق الإسلامي.

2. أسباب سياسية

أ. سقوط الدولة الموحدية : التي كانت تمثل دولة قوية واجهت الغزو الإسباني، وبعد سقوطها وتفكك السلطة، تغيرت الأوضاع جذريا. وساد الاضطراب والفوضى كل مناحي الحياة. ولم يجد الناس عزاء إلا عند الصوفية، في حماية أنفسهم وأموالهم، وقد قام الصوفية بدور الدولة، وهو

ما يلخصه قول أحد الباحثين : "... وهكذا تلاشت سلطة الدولة أمام سلطة الزاوية"[1].

ب. سقوط الأندلس : نتيجة التدهور السياسي الذي أصاب الأندلس، واستفحال المد أو الردة المسيحية، ونتج عن سقوط الأندلس أمران :

– الغزو الإسباني لمعظم سواحل المغرب الإسلامي، مما أدى إلى حالة تأهب دائمة لمواجهة الغزو، ومقاومة مستمرة له، والذي تحمل تبعاته ومسؤولياته بعد سقوط الدولة هم الصوفية، وذلك بإنشاء الرباطات والزوايا على طول الساحل الغربي، وهو ما يفسر لنا ربما انتشار الزوايا وكثرتها بالساحل الغربي مقارنة مع الساحل الشرقي.

– الأمر الثاني : هجرة كثير من صوفية الأندلس إلى الأراضي الجزائرية، ولعل من أشهرهم : الاشبيلي، الحرالي، ابن سبعين، وكان تأثيرهم قويا في دفع التيار الصوفي إلى الأمام وتكوين الجماعات الصوفية الأولى بالمغرب الأوسط.

3. أسباب اجتماعية

أ. انتشار البذخ والترف عند طبقات معينة، نتيجة الثراء الفاحش : مظاهر الترف والاستمتاع التي ميزت فقهاء المرابطين، مما أثر مباشرة على مشاعر الطبقات الشعبية الكادحة.

1. الدكتور الجيلالي صاري : محاضرة بعنوان الدور التاريخي للطرقية ببلدان المغرب العربي، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي 21 بمعسكر، 1983.

ب. تراجع القيم الدينية والأخلاقية حيث أهمل الخاصة والعامة الكثير من مبادئ الدين وسلوكه القويم، قد حارب الصوفية هذا الانحراف، وقاوموا بكل السبل والطرق هذه الاختلالات، مما أدى إلى انتشار مذهبهم.

الطرقية في الجزائر أثناء العهد التركي : انضمت الجزائر إلى الدولة العثمانية في بداية القرن السادس عشر، وذلك بفضل مجهودات "عروج وأخيه "خير الدين"، وكانت سواحل إفريقيا الشمالية بيد البرتغاليين والأسبان، وأدى ذلك إلى اصطدامهم بالأخوين المذكورين، ولما استشهد عروج أثناء حربه مع الأسبان في ضواحي تلمسان بعد سنتين من فتحه للجزائر أي عام 1516م، أصبح خير الدين بربروس الحاكم الوحيد في الجزائر، وكان بربروس ذكيا كما كان بعيد النظر، فألحق الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1520م. وعرف هذا العهد الكثير من الثورات والمؤمرات والدسائس، ونتج عن هذه الثورات والتمردات اضطرابات في الحالة الاقتصادية للبلاد، وركود في الحياة الثقافية، وقد اتسم هذا العهد بانتشار ظاهرة التصوف- كما يذهب إلى ذلك الدكتور جبار-، "وسيطرتها على توجيه مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلاً له، رغم أنه كان منتشرًا قبل".

الطرقية في عهد الاحتلال : بعد سقوط الدولة بعد الاحتلال، كانت الطرق الصوفية هي التي تولت المبادرة، على الرغم ما يقال هنا وهناك،

من أن مقاومة الأمير لم تكن صادرة عن طريقة، فانا لم نجد تفسيرا لالتفاف الجموع والقبائل حول شخص الشيخ محي الدين، الذي كان يمثل طريقة عرفت بتغلغلها في الأوساط الشعبية.

الاحتلال وظاهرة الطرقية : إننا إذا ألقينا نظرة على الدراسات والبحوث التي قام بها المحتل الفرنسي حول هذه الظاهرة، لنتعجب من هذا الكم الكبير من المؤلفات، لكن يزول عجبنا إذا عرفنا مدى انتشار هذه الظاهرة وقوتها في الأوساط الشعبية، ومدى امتدادها بين مختلف طبقات الأمة في تلك الفترة. كما نستطيع استخلاص عدة نتائج هامة من هذا الاهتمام المتزايد للمستعمر :

1. فشل المحاولات السابقة لاحتواء وإدماج الشعب الجزائري، فبحثت السلطات عن سر قوة هذا الشعب وعن طرق أخرى للتأثير عليه.

2. المعركة الثقافية أهم وأخطر بكثير من المعركة والمواجهة الحربية والعسكرية.

3. تجنيد المستعمر لكل هذا العدد الهائل من الضباط والمخبرين والباحثين، دليل آخر على أهمية الظاهرة وخطورتها.

ولعل من أوائل الدراسات الفرنسية حول الطرقية : دراسة الضابط "فرانسوا دي نوفو" المعنونة بـ "الإخوان، الطرق الصوفية عند مسلمي الجزائر" باريس 1846، وطبعت ثانية 1882، وكان دي نوفو من كبار المسؤولين في الشؤون الأهلية ومن المنتمين إلى السانسيمونية، وقد تزوج

جزائرية مسلمة. دراسة بروسلار "الإخوان" باريس 1859. دراسة الضابط لويس رين "مرابطون وإخوان" الجزائر 1884. وآخرها في زمن الاستعمار دراسة الجنرال "أندريه" (مدخل إلى دراسة الطرق الدينية المسلمة) الجزائر 1956.

كل هذه البحوث تنم عن رغبة أكيدة في التوصل إلى أسرار وخبايا هذه الطرق، وتحاول فهم أسباب قوتها وصمودها في مواجهة المستعمر، كما تقدم حلولا للسلطات العسكرية والسياسية في كيفية إخضاع هذه المؤسسات صعبة المراس التي لم تنهزم ولم تروض ومن ضمن الحلول المقترحة نجد :

1. كسب ود هذه المؤسسات وإقناعها بعدالة القضية الفرنسية.
2. تقريب بعض الطرق وتدعيمها ومساعدتها.
3. بث الصراع والخلاف بين هذه الطرق للقضاء عليها في الأخير.

ونجد معظم الجزائريين قد انضموا إلى الطرق الصوفية : القادرية، الشاذلية، الرحمانية، الطيبية، الدرقاوية.... وقد تكون سوء الظروف الاجتماعية والاقتصادية وتدهور الأوضاع على جميع المستويات وراء هذا الانتشار السريع والمذهل للطرق الصوفية. وعرفت الجزائر أكثر من ستة وعشرين طريقة فاعلة، منها أربعة أنشئت في العهد الاستعماري[1]، كالسنوسية والعلوية، والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني.

1. الدكتور أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، 28/4.

الطريقة القادرية : اتنتسب إلى سيدي عبد القادر الكيلاني دفين بغداد (ت561هـ = 1166م) والملقب بسلطان الأولياء، وانتشرت في منطقة التل الوهراني خاصة حيث تقسم القبائل العربية المعتزة بأصولها والمشهورة بشدة بأس فرسانها، وهذا ما جعل أغلب المنتسبين إليها ذوي ميول أرستقراطية.

ولقد تفرعت عن الطريقة القادرية العيساوية التي تنتسب إلى سيدي محمد بن عيسى المكناسي، والطريقة العمارية التي دعا إليها سيدي عمار بوسنة. أما الطريقة القادرية الأم فقد كانت تنتسب إليها في القرن التاسع عشر ثلاث وثلاثون زاوية، أهمها زاوية القيطنة على وادي الحمام التي أسسها الحاج مصطفى بن المختار الغريسي (جد الأمير عبد القادر) (ت. 1200هـ/ 1784م)، وتولى أمرها والد الأمير عبد القادر الشيخ محي الدين، ثم خلفه بعد وفاته ابنه الأكبر الشيخ محمد السعيد (أخو الأمير الأكبر) الذي انتهى أمره بالهجرة إلى المشرق بعد انتهاء مقاومة الأمير.

الطريقة الشاذلية : وكان من نتيجة نشاط الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، أن انتشرت الطريقة الشاذلية في كامل القطر الجزائري، فضلاً عن انتشارها في المغرب والمشرق قبله بواسطة مؤسسها أبو الحسن الشاذلي، وأتباعه، ونذكر من أتباع ابن يوسف الملياني في الجنوب الغربي من الجزائر : الشيخ ابن سليمان، المعروف باسم : سيدي الشيخ، وتأسست في هذه الجهة زوايا كثيرة من أهمها الشاذلية، وقد لعبت هذه الطريقة،

ممثلة في شخص ابن يوسف الملياني دورًا رياديًا في إعلاء "سلطة الصوفية". ولخطرها، فقد اتصل العثمانيون بممثلها، واستمالوه لجهتهم، فما كان منه إلا أن بارك وجودهم، وتحالف معهم على محاربة العدو المشترك : الإسبان من جهة، وسلطة الزيانيين بتلمسان المتحالفة مع الإسبان على العثمانيين من جهة أخرى.

الطريقة الطيبية : التي تنتسب إلى مولاي الطيب الشريف من وزان بالمغرب الأقصى (ت. 1679)، وانتشرت في سهول الناحية الوهراينة وكذلك في منطقة طرارة الجبلية. وقد استطاع شيوخ هذه الطريقة أن يكتسبوا تأييد ومساندة قبائل المخزن الوهراني.

الطريقة الدرقاوية : تنتسب إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي (ت. 1823)، وتتميز بالدعوة إلى جمع كلمة المسلمين على مبادئ بسيطة في التصوف وصرفهم عن مغريات الحياة وحثهم على تفادي وتجنب أصحاب السلطة، وبث الحماس في نفوسهم لمواجهة الخصوم. وقد وجدت هذه الطريقة أتباعًا كثيرين في الجهات الوسطى والغربية من البلاد الجزائرية بإقليم التيطري والناحية الوهرانية، وكان لدعاتها دور مهم في الأحداث التي عاشتها الجزائر في مستهل القرن التاسع عشر، بعد أن نجح كل من ابن الأحرش في شمال قسنطينة وعبد القادر الشريف بالناحية الوهرانية في إثارة السكان ضد السلطة المركزية.

الطريقة التيجانية : أسسها سيدي أحمد بن المختار بن سالم التيجاني في عين ماضي، تأثرت بالشاذلية، واتخذت طابعًا حضريًا لتركزها في عين ماضي وقصور الصحراء، وهذا ما ساعدها فيما بعد على الانتشار عن طريق التجارة في واحات الصحراء وبلاد السودان، لكنها لم تستطع التوسع شمالاً حيث التجمعات الكثيفة من السكان لمواجهة باي وهران لشيوخها في أول محاولة لهم للتمركز في التل الوهراني. فاضطر مؤسسها سيدي التيجاني إلى التحول إلى فاس (1798م)، فحظي برعاية سلطان المغرب مولاي سليمان. تجدد نشاط الطريقة التجانية في الجزائر بعد موت مؤسسها في فاس (1817م) ورجوع خلفه إلى عين ماضي، فعرفت انتشارًا جعل حكام الجزائر يتخوفون منها، فتعرض مركز الطريقة بعين ماضي لمهاجمة باي التيطري ثم لحملة باي وهران، مما اضطر أتباع التيجانية إلى الرد على هذه الاستفزازات بمهاجمة معسكر بتشجيع من قبيلة هاشم، عندها تمكن باي وهران حسن بن موسى من القضاء على شيخ الطريقة محمد التجاني والعديد من أتباعه.

دور الطرقية في مقاومة الاستعمار الفرنسي : ساهمت الطرقية بشكل واسع في الدفاع عن مقدسات الوطن وذلك منذ اللحظة الأولى التي وضع المحتل فيها قدمه بالجزائر، ويذكر حمدان خوجة في كتابه المرآة أن شيوخ الطرق الصوفية هم الذين أمروا جميع المواطنين الجزائريين بالتعبئة العامة والدفاع عن مدينة الجزائر العاصمة بعد تخلي الأتراك عن هذه المهمة. وكشف الضابط دي نوفو في كتابه الإخوان الصادر سنة 1845 عن الدور

الرئيس الذي أدته الطرق الصوفية في مقاومة الاحتلال، وتحدث النقيب ريتشارد عن ثورة الظهرة التي قامت سنة 1845 مبرزا الدور المهم الذي قامت به الطرق في هذه الثورة.

وجاء في تقرير للمفتشية العامة حرر بالجزائر سنة 1864 يعترف بالدور الخطير الذي تقوم به الطريقة الدرقاوية ما يلي : "الدرقاوية كانوا معادين لنا كل العداء لأن غايتهم كانت سياسية بوجه خاص، أرادوا أن يشيدوا من جديد صرح إمبراطورية إسلامية ويطردوننا، إن هذه الطريقة منتشرة جدا في الجنوب ومن الصعب جدا مراقبتهم، لقد كانت ندوات الإخوان سرية وكانت أغلبية رؤسائهم معروفة". وجاء في تقرير القائد "دي توربيل" بتاريخ 4 أوت 1859، بعد الاضطرابات التي رافقت المعارك التي خاضوها ضد الجزائريين ما يلي : "إن مبعوثين وفدوا من مختلف أنحاء الشرق وينتمون إلى مجموعة سيدي عبد الرحمن بوقبرين الدينية الرحمانية، التي يسكن مقدمها الأكبر سي المختار بواحة أولاد جلال (بسكرة) ليسوا غرباء عما يجري، وقد كانت أشغال لجان التجمعات التي شرع فيها من نواح عدة في نفس الوقت موضوعا لخطرهم ومواعظهم". ويقول المؤرخ الفرنسي مارسيل إيميري : "إن معظم الثورات التي وقعت خلال القرن التاسع عشر في الجزائر كانت قد أعدت ونظمت ونفذت بوحي من الطرق الصوفية، فالأمير عيد القادر كان رئيسا لواحدة منها وهي الجمعية القادرية، ومن بين الجمعيات المشهورة التي أدت دورا أساسيا في هذه الثورات : الرحمانية السنوسية الدرقاوية الطيبية".

ومن أشهر الثورات التي قادتها الطرقية ضد المحتل الأجنبي نذكر : ثورة الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر (1830). انتفاضة الطرق الصوفية (1845) بمنطقة الظهرة أطلق عليها الفرنسيون "انتفاضة الطرق الصوفية"، وذلك لمشاركة العديد من الطرق فيها ك : الرحمانية، القادرية، الطيبية..... ثورة بن ناصر بن شهرة (1846). ثورة الشريف بومعزة (1846). ثورة الزعاطشة (1848). ثورة الصادق بن الحاج المصمودي 1859. ثورة الشيخ بوعمامه (1881). ثورة الشريف بن عبد الله بورقلة. ثورة الشيخ بن جار الله : 1879م.

يتبع